

ومضات الأمل المؤنث في تونس

أسامة رمضان

رئيس تحرير العرب ويكلي



ليس هناك في تونس هوة عميقة تفصل بين مكانة المرأة في التعليم ودورها في المجتمع، ولذا فإن تحسن مؤشرات المساواة التعليمية بين الجنسين لا يلاقي صدا من قبل معظم شرائح المجتمع بل بالعكس. وقد عكس الترحيب الواسع بتألق التلميذات في امتحانات الثانوية العامة أملا راسخا لدى الكثيرين في تونس بأن المرأة، بجديتها وقوة عزيمتها ووضوح الرؤية لديها، قادرة على عجل. هناك ما يشبه الحسد بأنها قادرة لتتقد تونس من أزماتها والأخطاء المتركمة لنخبها. لسبب ما قد تكون تتميز به تونس، هناك مسحة من التفاؤل تتولد دوما عن نجاحات المرأة. نفس التفاؤل الذي أفرزته الوجوه الشابّة للنجاحات في الامتحانات وتصريحاتها الواثقة بالنفس تركت أنس جابر الرياضية التونسية المتألقة التي أضحت تشكل قدوة في القدرة على الإنجاز والعطاء. تفرح التونسيون، بمن فيهم من لم يشاهد مباراة لكرة المضرب من قبل، في أنس، لاعبة التنس التونسية. واستبشروا خيرا بأدائها وإبتسامتها الدائمة خلال المباريات. ودغدغ مشاعر افتخارهم كونها أصبحت أول لاعبة تنس عربية تفوز بإحدى أكبر الدورات العالمية الكبرى في اللعبة. أظهرت أنس دوما وعيا بدورها كقدوة للمرأة التونسية والعربية. وقد أعربت عن أملها في أن يشجع نجاحها على المستوى العالمي الكثيرات من تونس والمنطقة العربية كي يلتحقن بها في مضارب التنس.

كلما نظر التونسي لوجه السماء هذه الأيام إلا وترأى له أن السحب الداكنة تتراكم بما يحجب عنه الرؤية ويفقده الأمل. ولكن ومضات من الضوء من حين لآخر تزيح بعض الظلمة من أمام عينيه وتعيد إليه القدرة على الحلم. من أكبر ميررات الحلم الصامدة بثبات أمام الإحباط بالنسبة إلى معظم التونسيين والتونسيات التطلع لمستقبل أبنائهم وبناتهم المجتهدين والمجتهدات رغم الجائحة. في أوج الخوف من انتشار كورونا كنت تشاهد الأمهات والآباء مصطفين خارج المدارس والمعاهد ينتظرون خروج أولادهم وبناتهم بعد إجراء الامتحانات في المدارس الابتدائية والثانوية. كنت ترى الآباء والأمهات يبنون في تصفيق حار لا يتوقف حال خروج التلاميذ والتلميذات من قاعات الامتحان إلى الشارع. كنت تحس كيف أن أمواج الفرح تزيح كل الهواجس الأخرى عند صدور نتائج الثانوية العامة وتوزيعها بواسطة الإرساليات القصيرة التي يتلقاها التلاميذ والتلميذات في يوم سادس الفرح وتبادل التهاني بشكل لا علاقة له بالقائمة الطاغية على الشارع. هذا العام كانت البهجة مفردا مؤنثا بامتياز.

منظما كان متوقعا، كرسنت النتائج تفوق البنات في الدراسة، إذ هن شكلن 67 في المئة من مجمل الناجحين. وكن في طليعة الحاصلين على أفضل المعدلات.

وحتى عندما صرحت العديد من المتفوقات بأنهن يرغبن في مواصلة دراستهن العليا خارج البلاد لم يصدن أحد. كان هناك إقرار بأن البلاد بأوضاعها المتأزمة قد ضاقت بكفاءاتها من الجنسين من حيث ظروف تحصيل العلم والحياة وأفاق التشغيل لاحقا. كان هناك وعي جماعي بأن أي اعتراض على رغبة الناجحات في البحث عن الأفضل خارج الحدود هو بمثابة العقاب لبناتهن المتفوقات. صفق التونسيون مرام المرزوقي وندى الشارني وبقية الفتيات المتفوقات خاصة منهن التلميذات أصيلات ولايات (محافظات) الشمال الغربي، وهي محافظات تعتبر من الأفضل حظا في التنمية.

صحيح أن نتائج الامتحانات أظهرت أن الولايات (المحافظات) المتأخرة على صعيد مؤشرات التنمية البشرية مازالت تعاني تأخيرا على مستوى معدلات النجاح في الامتحانات المدرسية، ولكن النتائج أظهرت أيضا أن ذلك ليس عائقا أمام التميز لمن تعلقت همته بالتفوق سواء كان تلميذا أو تلميذة في أي منطقة من مناطق البلاد. ورغم كل هذاتها وإخفاقاتها لا تزال المنظومة التعليمية تشكل أفضل مصعد اجتماعي قادر على تحقيق طموحات الأجيال الصاعدة مهما كانت التحديات. منذ سنوات عديدة أظهر التعليم أنه مصعد اجتماعي مؤنث بامتياز. إذ ما انفكت نسب التسجيل والنجاح في الامتحانات المدرسية والجامعية تبرز تفوق الإناث سواء في تونس أو في الكثير من الدول العربية الأخرى. بفضل تشريعاتها

التقدمية والتفاعل الإيجابي مع حقوق المرأة منذ الاستقلال، رغم كل محاولات النكوص من حين لآخر،

بإضافة إلى ذلك، تقدم اليوم الطبيات والمرضات المرباطات على الخط الأول للمعركة من أجل الصحة والحياة، مع كل النجاحات التونسية في الميادين الأخرى، سببا وجيها للمجتمع التونسي في أصعب أيامه من أجل التفاؤل، حتى وإن بدل السياسيون كل جهدهم لدفعه نحو عكس ذلك.



دمشق وصفقة القرن القادمة

إبراهيم الجبين

كاتب سوري



وتبقى دمشق هي المشكلة، فالنخب التي أظهره النظام السوري أمام العاصفة، والأساليب العديدة التي اتبعها والتحالقات التي أقامها، التي أراها صناع القرار هناك مؤقتة ويمكن التخلص منها في الوقت المناسب، كل تلك العوامل أثقت الحاجة العربية إلى عاصمة الأمويين أكثر إلحاحا، بغض النظر عن حكمها اليوم، الأسد أو معارضوه.

تجاه الإسرائيليين، ولكن أيضا أمام الإسرائيليين تجاه العرب وقضاياهم. وحتى يكتب النجاح لصفقة القرن الحقيقية القادمة، يجب أن توضع على سطح المكتب جميع القضايا، بما فيها الوصول إلى الاستقرار ومن ثم إعادة الإعمار، وهذا ليس مستحيلا، فالحاجة السكانية إليهما بلغت ذروتها، إذ لا يمكن للمنطقة أن تستمر هكذا، أفاق مسدودة للحلول، ومخيمات وأعباء اقتصادية واستعصاء هنا وهناك.

إسرائيل الموجودة بقوة في الشمال الشرقي السوري كما هو الحال في شمالي العراق، حيث الحاضن الكردي الذي لم يكن يرى له في الصراع العربي الإسرائيلي ناقة ولا جملا، لن يكون صعبا عليها إيجاد صيغة للتفاهم حول الجولان، ليس مع الأسد بالطبع، بل مع حالة وصاية أكبر منه ومن معارضيه، وسيكون فمن ذلك التشكيل السيادي الجديد للشرق الأوسط.

ترك إسرائيل ومن خلفها الولايات المتحدة أن الفضاء العربي في المشرق، العراق وسوريا ولبنان، بات في لحظة قبول اضطرابي لأي مخرج من الأوضاع الراهنة، لكن هل هي جاهزة لدفع الثمن؟ هذا ما تعكسه التحولات السياسية على الساحة الإسرائيلية، والتخلص من بنيامين نتانياهو جزء أساسي من هذا النهج. فلن يقود السلام في المنطقة متعصبين ونسخ ملونة عن داعش والقاعدة وشناس بل أولئك الذين خرجوا على كل تلك الأفكار، قادمين من ذهنية ما بعد الصراع، وما بعد وقوع المجازر، أي حالة ما بعد الأمر الواقع. وهؤلاء لن يناقشوا الأمور في حواراتهم من الألف إلى الياء، بل من هذه اللحظة واستحقاقاتها.

يقف في وجه هذا المشروع الذي يبدو خيارا وحيدا، العامل الإيراني بوصفه عامل رفض لسياسات الولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة، والأصابع الإيرانية التي امتدت للعواصم العربية، هي تعبير عن إجراء استباقي من طهران، لما يمكن أن يحدث، لكن الشروط أخذت في الإكتمال من أجل إخراج إيران من الساحة وحصرها داخل حدودها، ولم يعد أحد يصنق شعارات إيران وميليشياتها الطائفية حول المقاومة وفلسطين، صفقة القرن الجديدة القادمة هي حول دمشق، لا حول القدس. وفي هذا المشهد، لا يمكن النظر إلى أي متغيرات سياسية أو عسكرية تجري اليوم، إلا على أنها مجرد تفاصيل صغيرة، أما النهج الكبير، فهو أن الصفقة القادمة وأنها ضرورة للطرفين، العربي بتعدد مواقفه وتوجهاته، والإسرائيلي بسنخته الجديدة، وهي ليست غراما بالإسرائيليين أو استجداء لمساعدتهم. وليست بالمقابل أجنحة سلام بيضاء تنبت من بين أكتاف ورثة الحركة الصهيونية، بل إدراك منهم لحقيقة أنه لا يمكن لإسرائيل الاستمرار وسط بحيرة من الدم والخراب، وأن الخيار الأفضل هو إعادة الإعمار، سياسيا واقتصاديا وتاريخيا.

إسرائيل. بينما يبدو الأمن القومي العربي اليوم في حالة اضمحلال تام، بعد غياب التنسيق المشترك بين الدول العربية وتقطع العلاقات ما بين محاور كانت بمثابة حامل للحالة العربية في الماضي، بغداد، الرياض، القاهرة ودمشق بالطبع.

إلا أن الأمن القومي العربي ليس خيارا سياسيا، بل هو انتظام تفرضه الجغرافيا والتاريخ ومصالح الدول الواقعة في نطاق حيوي واحد، وهو يعيد تشكيل ذاته كل مرة. وفي ظروف مستجدة رسختها السنوات العشر الماضية أعادت توزيع خطوط النفوذ، فظهرت عواصم مؤثرة في الخليج العربي، لعبت أدوارا حساسة ومؤثرة في تغيير مسارات الأحداث والتحويلات. ما دفع بالنظام العربي القديم إلى الشعور بضرورة تجديد ذاته، أو على الأقل السعي للاستفادة من بقايا تأثير مازال بوسعها العودة إلى الحياة من جديد.

القاهرة الباحثة عن دورها التاريخي كمرکز نقل عربي من جهة، وكوسيط أول ما بين العرب وإسرائيل من جهة أخرى، تشعر اليوم أكثر أن دورها السابق يضمحل، وبغداد التي لم يعد بإمكانها الاستمرار في حالة تبعية تامة للولي الفقيه، وإن أظهر الخطاب السياسي الإسلامي المهيم على العراق ذلك وتمسك به، إلا أن الأمور تتحرك عادة وفق قواعد أخرى أكثر سطوة.

الرياض تغيرت وقادت ثورة داخلية رفعت عن المجتمع السعودي أعباء كبرى كانت قد جعلت من حركة أكبر بلد عربي إسلامي ونيمة متباطئة حيال تغيير المعطيات من حولها، وباتت اليوم أكثر قدرة على التحرك السياسي نحو خيارات غير مقيدة باللكنة الإسلامية التقليدية أو حتى بقاعدة "ضرورة البقاء دولة محافظة" التي طالما تغنت بها النخب السعودية.



لا يتوهم أحد أن "صفقة القرن" التي طرحها الرئيس الأميركي السابق دونالد ترامب والتي كان عزابها صهره جاريد كوشنر مجرد صفحة طويت من سجل إدارة ترامب مع ما طوته الإدارة الديمقراطية الجديدة. من الواضح أن ما تم التأسيس له عبر هندسة صفقة قائمة لحل جميع مشاكل الشرق الأوسط جملة واحدة، إنما كان خلاصة المئات من الدراسات المستقبلية التي رأت أنه لا يمكن العبور إلى شرق أوسط جديد بـ"التقسيم"، وأنه من المفيد لجميع الأطراف اعتبار أن مفتاح الحلول هو وضع حد للصراع العربي الإسرائيلي، وإن كان كثير من الإسرائيليين، وبالأخص غير الرسميين منهم، يرفض تعبير "صراع عربي إسرائيلي" ويطلب بتحديد أطراف الصراع "فلسطيني - إسرائيلي"، "لبناني - إسرائيلي"، "سوري - إسرائيلي" إلى آخره، وأنه من غير الدقيق القول إن جميع العرب في حالة صراع مزمن مع الإسرائيليين. ناهيك عن عنصر غاية في الأهمية لجميع الأطراف، هو الأمن القومي.

أما الأمن القومي الإسرائيلي، فهو نطاق واسع بقي مسطرا على الذهنية السياسية الإسرائيلية منذ ما قبل تأسيس الدولة وحتى اليوم، وظل ورقة رابحة في جميع طولات القمار التي خاضتها الدولة العبرية، سواء كانت المقامرة عسكرية أو سياسية أو اقتصادية. لكن ذلك الأمن القومي الإسرائيلي يبقى في حالة هشّة ما دام يقوم على قواعد متباعدة، ما بين نهري الميسيسيبي غربا والغانج شرقا، تفصلهما بقع تشكل تهديدا وجوديا

تحدثت عن الرسالة التي توجهها للأجيال القادمة من الشابات في المنطقة مؤكدة "كل ما أريد قوله، إنني إذ بلغت أنا مبتغاي، فلا شيء مستحيل".

أنس لا تخوض مباشرة في السياسة، ولكنها أهدت فوزها الرياضي العديد من المرات للزعيم التونسي الراحل الحبيب بورقيبة، الذي كان يفخر في حياته بأنه "محرر المرأة"، وأصبح اليوم رمزاً لنضال المرأة التونسية للدفاع عن حقوقها أمام قوى الجذب إلى الوراء. رغم كل التقدم الحاصل، مازالت المرأة التونسية تعاني الكثير من العقبات في الوصول للمناصب العليا والمساواة الاقتصادية الفعلية. بالمقارنة مع الرجل، كما هي تواجه ظواهر العنف والتمزت وسائر الرواسب الثقافية المتكسمة دون مساندة كافية. ولكن المرأة بقيادتها الشجاعة للجيش الأبيض واستعدادها للنضحية بالنفس على جبهة الحرب على كورونا، باعتبارها تشكل أغلبية الطواقم الطبية، أظهرت كفاءة واقتدارا كفيين بإفحام من كان له أدنى شك في جدارتها بحقوقها كاملة. بالإضافة إلى ذلك، تقدم اليوم الطبيات والمرضات المرباطات على الخط الأول للمعركة من أجل الصحة والحياة، مع كل النجاحات التونسية في الميادين الأخرى، سببا وجيها للمجتمع التونسي في أصعب أيامه من أجل التفاؤل، حتى وإن بدل السياسيون كل جهدهم لدفعه نحو عكس ذلك.